الى فتح مكة . فسار الامير سعود على رأس ذلك الجيش ونزل السبلة (قرب الزلفى) فأقام عليها اياماً اجتمع عليه خلالها كثير من القبائل ثم رحل منها وقصد الحجاز . فلما وصل الطائف انضم اليه عثمان المضايفي ومن كان معه فزحف بتلك القوات الجرارة وقصد مكة .

وكان ذلك في موسم الحج وكانت مكة مزدحمة بالحجاج فنزل الامير سعود بقواته بالعقيق (قرب الريعان) منتظراً انتهاء موسم الحج لكي لا يزعج الحجاج ويرعبهم .

وكان قد تجمع في مكة كثير من الحاج الشامي والمصري والمغاربة وامام مسقط فهمّ هؤلاء الحجاج بالخروج لقتاله ثم عدلوا عن ذلك الرأي .

وبعد انقضاء ايام الحج وانصراف الحجاج عن مكة طلب الشريف غالب من الحاج المصري والشامي مساعدته لقتال الامير سعود ، فرفضوا طلبه وغادروا مكة كما غادرها من كان فيها من الحامية العثمانية التابعة لجدة . فوجد الشريف غالب نفسه وحيداً في مكة وان لا طاقة له على البقاء والصمود امام تلك القوات العظيمة فتخلى عن مكة وتوجه الى جدة، وترك الأمر في مكة الى اخيه الشريف عبد المعين .

فكتب الشريف عبد المعين كتاباً الى الامير سعود يعرض له طاعته واستعداده لتسليم مكة على ان يستبقيه في شرافتها . وحمل اليه هذا الكتاب بعض علماء الدين في مكة وهم الشيخ محمد طاهر سنبل ، والشيخ عبد الحفيظ العجمي ، والسيد محمد بن محسن العطاس ، والسيد ميرغني .

فاجتمع هذا الوفد بالامير سعود في معسكره في وادي السيل ، بين الطائف ومكة ، فقبل الأمير ما عرض عليه الشريف عبد المعين وزود الوفد بكتاب امان عام لأهل مكة ضمنه موافقته على بقاء الشريف عبد المعين في شرافة مكة . وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من سعود بن عبد العزيز

الى كافة اهل مكة والعلماء والاغاوات وقاضي السلطان.

السلام على من اتبع الهدى.

اما بعد:

فأنتم جيران الله وسكان حرمه آمنون بأمنه انما ندعوكم لدين الله ورسوله «قُلْ يا أهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا الى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ولاَ نُشْرِكَ به شَيْئاً ولاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإنْ تَوَلَّوْا فَقُولوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُونَ»(١) فأنتم في وجـه الله ووجه امير المسلمين سعود بن عبد العزيز واميركم عبد المعين بن مساعد فاسمعوا له واطيعوا ما اطاع الله والسلام.

وعلى اثر وصول وفد العلماء بكتاب الامان في ٧ شهر محرم ١٢١٨ هـ ٣٠ نيسان ١٨٠٣ م صعد المنبر في الحرم الشريف الشيخ حسين مفتي المالكية في مكة وقرأ كتاب الأمان على ملأٍ من الناس.

وفي ٨ محرم اول ايار المصادف يوم السبت، دخل الامير سعود مكة على رأس جيشه محرماً وهم رافعون أصواتهم عالياً بالتلبية والتكبير والتهليل خافضون رؤوسهم من خشية الله، ورايات النصر ترفرف فوق رؤوسهم وقد رُسمت في اعاليها كلمة «لا اله الا الله محمد رسول الله» فطافوا وسعوا، ثم مضوا الى المحصب حيث أعدّت الضيافة والموائد في بستان الشريف غالب، ودعي الناس بعد ذلك الى اجتماع عام في المسجد الحرام فاجتمعوا زرافات ووحداناً وكان في مقدمتهم الشريف عبد المعين ومفتي مكة الشيخ عبد الملك

(١) سورة آل عمران آية ٦٤.

القلعي . فألقى الامير سعود خطاباً طويلاً اوضح فيه مبادىء الدعوة للتوحيد .

ثم دعا الناس لاجتماع آخر طلب منهم فيه ان يهدموا القباب المقامة على بعض القبور فهُدمت .

وكانت العادة ان يصلي بالجماعة الحاضرة احد الأئمة من اهــل المذاهب الأربعة ثم يتلوه غيره فأمر بابطال تلك العادة وان لا يُصلي في المسجد الا امام واحد ، فصار يصلي الصبح الشافعي ، والظهر المالكي ، وهكذا بقية الاوقات ، ويصلي الجمعة مفتّي مكة عبد الملك القلعي الحنفي .

وامر بتدريس كتاب «كشف الشبهات» في المسجد الحرام في حلقة عامة يحضرها العلماء والاهلون ففعلوا .

ومكث الامير سعود في مكة اكثر من عشرين يوماً كتب خلالها كتاباً الى السلطان سليم في اسطنبول هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من سعود بن عبد العزيز

الى السلطان سليم

« اني دخلت مكة ، وامنت اهلها على ارواحهم واموالهم بعد ان هدمت ما هناك من اشباه الوثنية والغيت الضرائب الا ما كان منها حقاً وثبّتّ القاضي الذي وليته انت طبقاً للشرع الاسلامي . فعليك ان تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء الى هذا البلد المقدس بالمحمل والطبول والزمور فان ذلك ليس من الدين في شيء » .

الزحف على جدة

كان الشريف غالب أثناء مدة مكوث الامير سعود في مكة يراسله لعقد الصلح، وكان غرضه من تلك المراسلة كسب الوقت لتحصين جدة والاستعداد لقتاله، فلم تخف نواياه على الامير سعود، فزحف الامير سعود بجيشه على جدة فوجدها محصنة تحصيناً قوياً وقد حفرت حولها الخنادق فضرب عليها الحصار عدة ايام فلم يفز منها بطائل فتركها وعاد الى مكة ومنها قفل راجعاً الى الدرعية.

استرداد مكة

وبعد انسحاب الامير سعود عن حصار جدة كانت بعض القبائل في عسير قد اخلصت في طاعتها للدعوة فحاولت فتح جدة وحاصرتها فأرسل زعيمها عبد الوهاب ابو نقطة الى الشريف عبد المعين في مكة يطلب منه ان يزوده بالمؤونة خشية اطالة الحصار، فأرسل اليه الشريف عبد المعين ما طلب ولكن تلك القبائل لم تستطع عمل شيء يذكر فانسحبت من محاصرة جدة.

اما الشريف غالب فلما علم بارتحال الامير سعود عن الديار الحجازية خرج بجيشه من جدة وقصد مكة فعسكر في وادي فاطمة واحتله ثم انتقل الى الزاهر ومنها توجه الى مكة فتحصن بعض الجيش المحافظ من قبائل نجد في قلعة اجياد والبعض الآخر في بستان الشريف غالب بالمحصب. فدخل الشريف غالب مكة دون معارضة من اخيه عبد المعين واحتلها وارسل بعض جنده لحصار قلعة جياد وبستان المحصب. ودام الحصار نحو خمسة عشر يوماً ثمّ فرّ بعض المحاصَرين من تلك القلعة وذلك البستان بعدما هدمت المدافع بعض جدرانهما فاقتحمهما جند الشريف غالب واستسلم لهم من بقي فيهما من جند الدرعية.

ثم زحف جند الشريف غالب بعد ذلك الى الطائف فحاصر فيها عثمان المضايفي ومن كان معه من جند الدرعية ففشل الحصار وخرج عثمان المضايفي زاحفاً الى (السيل) ثم الى «الزيمة» ثم الى «المضيق». وفي اثناء زحفه وافت الأنباء من الدرعية باغتيال الامام عبد العزيز. وبوفاته بويع ولده الامير سعود بالامامة والملك. وحوادث الامام سعود خارجة عن موضوعنا.